من رسائل الأب صفرونيوس القصيرة

بتولية الروح وبتولية الجسد

من رسائل الأب صفرونيوس

بتولية الروح،
وبتولية الجسد

الكتاب : بتولية الروح، بتولية الجسد
الكاتب : ق. صفرونيوس

الناشر : جذور للنشر – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
الطبعة : الأولى ٢٠٢٠

المطبعة : جي سي سنتر ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
١٤ ش محمود حافظ . ميدان سفير . مصر الجديدة

مُقَدِّمَة

صفرونيوس عبد ربنا يسوع المسيح الذي لا يخجل من ضعفات جسده ونفسه، يطلب لكم من فوق، السلام السمائي الذي يفوقُ كلَّ فَهمٍ.

نعمةُ ربنا يسوع المسيح، وعطية روحه القدوس تكون معكم إلى الأبد.

وحدة الروح والجسد

١- معلومٌ عندنا نحن لُبَّاس الصليب أن توبة الجسد لا تحدث بدون توبة الروح، وتوبة الروح لا تَكمُل بدون الجسد. هكذا استلمنا هذا التعليم الرسولي من رسول ربنا يسوع المسيح القديس بولس، ومِن معلِّمنا الطوباوي أنطونيوس خليفة رُسل الرب، وحامل صليب ربنا يسوع المسيح.

٢- معلومٌ عندنا أن كلَّ حركات قلب الإنسان تنبع من الذاكرة ومن المخيلة ومن خبرات البِر والإثم معًا، ومن الشهوات المتنوِّعة التي تنام في قلب الإنسان، تنتظر الفرصة المواتية لكي تكمُل.

٣- لنبدأ بتوبة الروح. وهذه هي توبة الروح:

+ أن يكون الربُّ هو غاية وجودنا في هذه الحياة. هذا نراه في قلوبنا إذا صارت للرب الأولويةُ على كلِّ شيءٍ، فهو أعظمُ من كلِّ حديثٍ، ومن لقاء الأخوة، ومن الطعام بأنواعه، ومن النوم، ومن كل الأمور

التي نظن أنها ضرورية وهامة.

+ ومتى صار الربُّ هو غاية الاهتمام، وهو محور وجوهر محبتنا، عندئذٍ لنفحص عن الأمور التي نعملها من أجل راحة نفوسنا وسعادتها، فنجعل هذه الأمور للرب وحده، حتى ننال السعادة الحقيقية والفرح الروحي الكامل الذي أعدَّه الرب للذين يحبونه بكل قلوبهم.

٤- وتكمُل توبة الروح إذا جعلنا الجسد واحدًا مع الروح دون أن يصبحَ أداةً للخطية[١]. هذا ليس سهلًا على المبتدئين الذين لم تكمُل معرفتهم بأنفسهم.

ولكن، لنبدأ حسب التسليم الرسولي على هذا النحو:

أولًا: أن نرشمَ أعضاء أجسادنا بعلامة الصليب، وأن نبارِك الرب على كل عضوٍ وُهِبَ لنا.

ثانيًا: أن نُرتِّبَ علاقة كل عضو في الجسد بأعضاء الإنسان الداخلي الروحي. فاللسان هو باب الروح، واليدين هي قوة الشركة، والقدمين هي قوة الثبات وعلامة القيامة من الأموات[٢] والرأس هي عرش الابن، والصدر هو هيكل الروح القدس؛ لأن نسمة الحياة التي فينا هي نسمة الخليقة الأولى (أي نسمة الهواء)، ولكنها تعمل بقوة نسمة الحياة التي أُعطيت للخليقة الجديدة، أي نسمة روح الرب، روح ربنا يسوع المسيح. وهكذا

١- الكلمة القبطية اليونانية **Opsanon**.

٢- الوقوف في القبطية واليونانية هو ذات الفعل ''يقوم''، ولذلك صار الوقوف أثناء الصلاة هو شركة الجسد في قيامة الرب. وعندما يقول الشماس: ''أيها الجلوس قفوا''، فليس المقصود هو مجرد الوقوف، بل أن نقوم ونسبِّح مع القوات السماوية تسبحة الظفر بالقيامة من الأموات.

نعيد للجسدِ مكانَته التي فقدها بالخطية، ونُدخِله في الشركة الروحانية التي أسَّسها ربنا يسوع المسيح بتجسده.

ثالثًا: وبسبب تجسُّد الرب وتقديم جسده ذبيحةً مقدسةً رَفَعَت حكم الموت وأبادت الفساد وأظهرت القيامة، وصار جسده جسدًا مُحييًا، تحوَّلت أجسادنا بسبب سِر المعمودية المقدسة، وعطية الروح القدس في الختم السماوي "الميرون المقدس" إلى ألسنةٍ ناريَّةٍ تلمع فيها علامة الصليب في كل مرة نصلي ونسجد ونخدم الأخوة ونمارِس جحد الذات الحقيقي.

تأتي هذه النار من داخلنا، من عطية الروح القدس الساكن فينا، من اللقاء مع الروح القدس الذي يسكبه علينا رئيس الكهنة، ربنا يسوع المسيح.

هذا معلومٌ عندنا حسب إيماننا الأقدس؛ أن الروح القدس الساكن فينا لا يفارقنا بالمرة، بل يعمل في داخلنا مثل قطرات ماء ينبوع تلتقي مع فيضان المطر السماوي، وتصبح واحدًا مع العطية الواحدة التي أخذناها من المسيح يسوع ربنا، والتي بها نتقابل معه بعطيةٍ مُودَعةٍ فينا، وبعطيةٍ تُفاضُ علينا، لكي بعملٍ واحدٍ، لعطيةٍ واحدة، ندخل شركة الثالوث القدوس في يسوع المسيح ربنا.

وكما قال الرسول القديس: الروح واحد والمواهب متنوعة، ولكن تنوُّع المواهب لا يفصِل، بل يقدِّس للوحدة. وعطية الإيمان هي سُكنى الروح القدس في القلب، وهي ذات العطية التي توحِّدنا بالرب يسوع المسيح.

وهكذا ينير الروح القدس إنساننا الداخلي، لكي نجذب الجسد إلى هذه الشركة، ويصبح روحانيًا عاقلًا بقوة كلمة الله وبعمل الروح القدس.

رابعًا: ونحن نُعقِّل الجسد[٣] على مثال صليب ربنا يسوع المسيح؛ لأنه جعل جسده بخورًا سمائيًّا قرَّبه لله الآب، وذبيحةً حيَّةً كاملةً مقدسةً. وهكذا، عندما نُقدِّم أجسادنا إلى الآب السماوي في يسوع المسيح، فإننا نُعقِّل أجسادنا، ولا تصبح أجسادنا غير عاقلة، بل آنية الروح الذي فينا والذي استنار بقوة ربنا يسوع المسيح.

٥- صادقةٌ هي الكلمة ومستحقة كل قبول -حسب تعبير الرسول العظيم- وهي أننا بسبب موت الرب وقيامته، صارت لنا حياةٌ لا تزول ولا تقوى عليها خطايانا مهما كانت؛ لأننا في شركة حياة وقوة قيامة الرب وشركة آلامه، لسنا تحت قوة الخطية ولعنة الموت، بل وُهِبنا حياةً لا تزول ولا يقوى عليها الموت؛ لأن الرب دحر الموت وأباده.

٦- وتحوُّل أجسادنا إلى قوة روحانية يتم أولًا بتغيُّر نظرتنا وفكرنا، أي بالتوبة (metanouia) لأن تغيير الفكر لا يغيِّر فقط سلوك الإنسان الداخلي، بل يغيِّر سلوك الإنسان الخارجي أيضًا.

٧- وحقًا أيها الأحباء، نحن نصبح هيكلَ الله، ونرى ذلك بعين الإيمان. هيكلًا ينمو قليلًا قليلًا مثل بناءٍ يرتفع كل يوم جديدًا في داخل البناء القديم، أي الحياة القديمة، إلى أن يسقط بالموت وبانحلال الجسد الطبيعي، لكي يظهر من تحته جسد القيامة في اليوم الأخير. هذا الجسد الأرضي لن يتحوّل إلَّا بالموت، أي رقاد الجسد وزرعه في الأرض ورد العنصر الأرضي إلى تراب الأرض كما قال الرسول (١ كور ١٥: ٣٦ - ٣٧).

٣- أو نجعله عاقلًا: الكلمة القبطية اليونانية هي ⲗⲟⲅⲓⲕⲟⲛ وردت في صلواتنا الطقسية وتُرجمت في العصر الوسيط إلى «الناطق». راجع على سبيل المثال أُوشية القرابين في رفع بخور باكر، وفي طقس المعمودية حيث يُقدَّم المعمَّد على المذبح مثل قربان سماوي لله الآب بواسطة ربنا يسوع المسيح.

٨- وتنمو حياتنا الجديدة عندما نقدِّم أجسادنا إلى الله ذبائح روحية عقلية، أي ناطقة بالمحبة الروحانية، محبة الله الآب لابنه يسوع المسيح والتي سُكِبَت فينا بقوة الروح القدس (رو ٥: ٥). وحقًا -أيها الأحباء- يحدث هذا فينا بقوة الروح القدس، لا بقوة الإرادة الإنسانية وحدها والتي أحيانًا تشتعل بنار الروح القدس وبعد ذلك تظن أن حرارة المحبة التي فيها نابعة من داخلها، ولكن هذا نابعٌ من عطية الروح القدس التي تدفعنا نحو الاتحاد الكامل حسب احتمال الفكر والإرادة والجسد، حتى لا نموت بسبب قوة تدفق الحياة الإلهية فينا، بل ننمو حسب صورة المسيح يسوع ربنا الذي أكمل حياته بالموت على الصليب لكي نكمِّل نحن حياتنا بقبول موته كحياةٍ لنا.

٩- الجسد الذي يُعقِّلُه الروحُ هو هبةٌ وتقدمةُ حياةٍ تنمو في طبعه الترابي والأرضي مثل حبة خردل، وتنمو بقوة الروح القدس الذي يعطي لها ماء الحياة لكي يتحول الترابي إلى سمائي، والأرضي إلى روحاني ليس بأعمال الإنسان، بل بقوة ربنا يسوع المسيح.

لنراقب هذا التحوّل فينا عندما لا نحزن إذا أصابتنا الأمراض والأوجاع، وإذا قبلناها بشكرٍ ورجاءٍ حي. ولنراقب كيف نفرح بالتجرد من الألقاب والأموال وكل ما نملك؛ لأن هذا التجرد لا يُحرِّك الداء القديم (الخوف من الموت). وعدم تحرُّك هذا الداء يعني أننا قد نلنا رجاء حياة عدم الموت من ربنا يسوع المسيح الذي ثبَّتَ فينا عدم الموت بقوة الروح القدس الساكن في أجسادنا المائتة (رو ٨: ١١).

١٠- لنصُمْ صومًا قلبيًا روحانيًا عن كل الأفكار والمناظر وعن كل شهوةٍ صالحةٍ؛ لكي ينمو جسد القيامة فينا ونحسُّه بالإيمان، ونراه في أعضاء أجسادنا المائتة لامعًا بقوة الروح القدس. وهذه هي علامات نمو

جسد القيامة فينا:

أولًا: أن نحِسَّ بطهارة أجسادنا الترابية بسبب طهارة الروح القدس التي أُعطيت لنا في المعمودية المقدسة ورشومات[٤] الميرون الإلهي.

ثانيًا: الفرح والنشاط والاهتمام بالصلاة وعدم الخوف من التعب أو السجود.

ثالثًا: سرعة خدمة الأخوة حتى في حالات التعب والمرض.

رابعًا: محبة السهر وهجر النوم والراحة بسبب انسكاب نار المحبة الإلهية فينا.

١١- قال واحدٌ من الشيوخ: **ليكن جسدك في عقلك حتى إذا كان عقلك مستريحًا في الله استراح الجسد من قتالات كثيرة.** وهذا يعني أن الجسد كله يكون قوة عاقلة في فكر الإنسان وقلبه، وأن يراه الإنسان واحدًا مع روحه وعقله ولا يراه كوسيلةٍ للخطية أو أداةً لإشباع ما هو مزيَّفٍ وكاذب.

توبة المخيِّلة:

١٢- لنطرح عنا كل صور الحياة الأولى التي حوَّلت أجسادنا إلى آلاتٍ وعبيدٍ للخطية حسب كلمات الرسول العظيم (رو ٦: ١٣). وعندما نكُفُّ عن تخيُّل أجسادنا كوسائلَ لإشباع شهوات قلوبنا، تعود إلينا وحدة الجسد والروح التي انفصلت فيها الروح عن الجسد بسبب سقوط آدم.

١٣- وعندما يقول الرسول إنه يرى شريعة موت تحارب ذهنه وساكنة فيه، تحاول أن تحرِّك الفكر وتستعبده (رو ٧: ٢٣)، فقد كان يقصد

٤- الكلمة الأصلية القبطية أختام.

-بشكلٍ خاص- ما تعمله المخيلة فينا حتى تحرِّك صور الدنس والخوف والطمع وكل دنسٍ آخر؛ لأن الوحدة بين القول والفعل والفكر والإرادة، والحس الروحي والجسد ناقصةٌ فينا.

نحن نحيا للجسد عندما نبقى في داخل المخيلة ونُسرع وراء الصور الطائشة التي تحاول أن تجلب علينا أوجاع النجاسة. علينا أن نجذب الأساس لكي يسقط البناء كله ونهدمه دون جزعٍ أو ترددٍ، وذلك بترك كل هذه الصور، وأن لا نطيل تأملها، بل بالصلاةِ نتطهر، وبقوة الروح القدس تتوب المخيلة وتسرع إلى صور الشهداء (الأيقونات)، وصور كل ما هو مقدس لكي تنال قوة وعطية الحياة الآتية. وعندما تصبح هذه الصور ساكنة في المخيلة، تحركها نحو الله وبالتالي تحرِّك الجسد كله.

توبة الجسد:

١٤- يتوب الجسد بتوبة الروح. ويصبح الجسد الإناء العقلي للروح بالسجود والوقوف، وبالانقطاع عن الطعام وملازمة الوحدة وخدمة الأخوة وتلاوة الصلوات .. كل هذه الأعمال تحوِّل الجسد إلى إناءٍ روحيٍّ.

١٥- عندما يتحوَّل الفكر إلى الجسد يفقد الفكرُ قدرته على البقاء في الشركة؛ لأن تحوّل الفكر إلى الجسد، يجعل الإنسان حيًّا بحسِّ الاستقلال عن الله.

أمَّا إذا تحوّل الفكر إلى الجسد أثناء الصلاة وقدَّم الإنسان جسده قربانًا، فقد يحس بالاستقلال عن الله، ولكنه يبقى في الشركة من جانبه، أي بسبب بقاءه حيًّا فيها، وإن تركها بسبب تحوّل الإرادة إلى الأمور غير السمائية، فإنه يعود إلى الشركة بشوقٍ بسبب محبته للرب.

١٦- لنحوّل أجسادنا إلى آنيةٍ روحيةٍ لكي تكتسب صورةً سمائيةً تغطي صورتها الأرضية الترابية، وذلك بالسجود والانقطاع عن الطعام؛ لأن السجدات المتوالية بإدراكٍ واهتمام، تخلع عن الجسد صورة استقلاله عن الروح، وتزرع في الحس وحدة الجسد والروح.

عندما نتصور أجسادنا كأداةٍ أو كشيءٍ مستقلٍ عنَّا، نُسرع إلى الخطية؛ لأن الفكر يسقط من الشركة مع الله إلى معرفةٍ حسيَّةٍ ناقصة بعيدة عن عمل الروح القدس الذي هو جوهر شركتنا مع الله.

النُّسكُ بإفراز:

١٧- لنصُم بطهارة قلب، أي أن نطلب الرب وحده، وأن نرفض الالتصاق بآخر غير الرب. ولنصم صومًا روحانيًّا عقليًّا برفض كل الأفكار والتصوُّرات الكائنة في قلوبنا. وليكن صومنا بإفراز. وهذا هو الإفراز الحقيقي:

أولًا: أن لا نفرح إلَّا بالرب، لا بالنجاح في الانقطاع عن الطعام؛ لأن فترات الانقطاع إذا لم تكن من أجل ضبط الفكر والمشاعر والتخلي عن الذات، تحولت إلى برٍّ ذاتيٍّ مستتر.

ثانيًا: أن لا يكون الانقطاع هو الهدف، بل هو وسيلة؛ لأن الانقطاع كهدف يشبه كلبًا رأى الكلاب الأخرى تجري وتنبح، فجرى ينبح معها دون أن يُدرِك سبب الجري والنباح. إن هدف النسك الحقيقي هو المسيح يسوع وحده.

ثالثًا: لنعتكف، لا هربًا من الخدمة ولا سعيًا وراء مديح، ولكن لكي يكون لنا ثمرُ الالتصاق بالرب، وهو الامتلاء من الروح القدس، لكي -ونحن نحيا بالنعمة الكائنة فينا- نسرع إلى ملء الحياة التي لنا في المسيح يسوع.

وحدة الجسد والروح:

١٨- توحِّد التوبةُ الجسدَ والروح، وتجعلهما واحدًا لأن التوبة تغيِّر القلب، والقلب الذي يُلازم الرب يطلب منه وفيه الشركة مع الآب في الروح القدس.

لنطلب هذه الشركة؛ لأن صلاتنا إلى الثالوث توحِّد الجسد الروح وتجعل الجسد روحانيًّا، إذ تنزع عنه كل التصورات الشريرة التي التصقت به والتي تركد في المخيلة.

رأى أحد الشيوخ[٥] أحد الأخوة يصلي في الكنيسة أثناء تقديم الذبيحة الإلهية، ورأى نارًا تخرج من فمه وتقدِّس بعض الأخوة الواقفين للصلاة، فأدرك الشيخ أن هذا الأخ كان يصلي من أجل إخوته وكان يسكب قلبه أمام الرب، وبعد انتهاء الخدمة سأله الشيخ أن يكشف له عن عمق صلاته، فقال له إنه كان يردد عبارة الرسول الكبير والتي كان يتمنى فيها أن يكون محرومًا من المسيح من أجل إخوته لكي يدخل إخوته الملكوت ولو على حساب خلاصه، فأدرك الأخ أنه يجب أن يسكب قلبه أمام عرش الثالوث لكي -في المسيح- ينال ميراث الملكوت مع إخوته. وانتفع الشيخ إذ أدرك قوة الشفاعة والتوسل. وقال الشيخ بعد ذلك إن الصلاة من أجل الأخوة تطهِّر الجسد من حركات الشر وتحوله إلى نارٍ تلتصق بالروح الإنسانية ويصبح معها واحدًا بنار الروح القدس.

١٩- **عندما نعيش حسب النعمة، لا ندرك الفرق بين الروح والجسد؛ لأن النعمة توحِّد كياننا الذي قسَّمته الخطية إلى عنصرين.** وهكذا يبتهج القلب بالروح ويتعزَّى، ويصبح الجسد مثل نسمة هواء

٥- ربما الكلام هنا عن صفرونيوس نفسه الذي رأى هذا المنظر الإلهي في خدمة القداس الإلهي (المعرب).

تحرِّكه قوة النعمة نحو مرتفعات روحية لا يقوى عليها؛ مثل السهر والشبع من كلمة الله والارتواء من الحضور الإلهي الذي يجعل الجسد نفسه يشبع من حضور خالقه ويفرح به حسب الفرح الروحي الفائق الذي يعطيه الروح القدس.

الذاكرة لا تُدنس الجسد ولا تُدنس الروح:

٢٠- عندما نتذكر الشرور وتعبُر مناظرها في قلوبنا دون ندمٍ، وتخلق فينا لذةً تختلف عن اللذة الأولى، فإننا يجب أن نلاحظ أن قوة العواطف التي فينا مصدرها المحبة، وإن هذه المحبة إذا انحرفت نحو شيء أو هدف آخر غير الله، أشعلت فينا رغبة الالتصاق والاتحاد بما نحب ونرغب. هكذا خلق الله الإنسانَ ميَّالًا للاتحاد بغيره. وإذا فشل في الاتحاد وحوَّله إلى اتحاد بشيء أو جعل اللذة هدف الاتحاد، استعبد ذاته وفكره لهذه القوة الخفية التي مصدرها الصورة الإلهية التي وُهِبَت لنا في آدم الأول، وصارت مشوَّهةً بالخطية، وجدَّدها ربنا يسوع المسيح فيه، وردها إلى الله الآب بموته المحيي وانسكاب عطية الروح القدس. أما سبب الاستعباد فهو ظاهرٌ لنا؛ لأن رغبتنا في الاتحاد حسب روح المسيح هي رغبةٌ في الحياة الأبدية وعودةٌ إلى مصدر الوجود، أما رغبتنا في الاتحاد حسب صورة آدم الأول المشوَّهة بالخطية، فهي استخلاص اللذة والهرب من التضحية ومحاولة الوصول إلى سعادةٍ مزيَّفةٍ لها بريقٌ خاص، أي بريق اللذة والفرح الكاذب بالوصول إلى هدفٍ كاذبٍ لا يبقى، وهو ما يؤكده ربنا له المجد بقوله للمرأة السامرية: ”كلُّ مَن يشرب من هذا الماء يعطش“، ولذلك نعود إلى نبع اللذة محاولين أن ننال سعادةً مؤقتة نعلم أنها لن تدوم، ولذلك نعود إليها، وهذا ما يجعلنا عبيدًا. **أمَّا الاتحاد بالمسيح فهو الحرية الحقيقية.**

٢١- لنطلب الحياة من الله ومن الروح المحيي الذي يُحيي الأموات، لكي ننال قيامة الروح[٦] التي نراقبها فينا والتي هي عربون القيامة العامة في اليوم الأخير.

لنتُبْ عن طلبِ فرحٍ آخر غير الفرح بالرب.

لنطلب الاتحاد الحقيقي الدائم الذي يقول عنه الرسول: ''أما من التصق بالرب فهو روحٌ واحد''؛ لأنه عودة إلى ينبوع الحياة ربنا يسوع المسيح. والصلاةُ كفيلةٌ بأن تقودنا إلى هذا الينبوع لأن الموت كائنٌ في آدم الأول، والحياة والقيامة في آدم الأخير حسب شهادة الرسول: ''كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سوف يُحيا الجميع''، وعندما ''نُحيا في المسيح'' لا نعود نُستعبَد، بل نجد الحرية الحقيقية.

٢٢- وأنا الشيخ الذاهب إلى ميراث الحياة حسب وعد الله الآب في ابنه يسوع المسيح أقول لكم: إن الشرور لا تدنِّس الجسد؛ لأنها تعبُر في الذاكرة والمخيلة مثل سحابٍ سريع، وهي لا تدنِّس الروح؛ لأن الروح تقدَّست بالروح القدس، وإنما الشعور بالدنس هو شعورٌ حقيقيٌّ مصدره الخوف من الدينونة، ومصدره الآخر عدم كمال محبتنا لله الآب؛ لأنه ليس عبثًا أن قال الرسول إن ''المحبة تطرحُ الخوفَ خارجًا»، وقال أيضًا: ''الخوف له عذاب''، وعذاب الخوف هو عدم ثقة قلوبنا بالسيرة التي اخترناها. ولكن، ليكن لنا سلامٌ في المسيح؛ لأن الخطية لا تقوى على الحياة الجديدة التي زُرعت فينا بالمعمودية المقدسة، وثبَّتها فينا الروح القدس بالمسحة الإلهية، وتنمو بطعام الحياة الأبدية (الإفخارستيا).

٢٣- إذا حاصرتنا المخاوف، لنطرح أنفسنا على المصلوب، ولنطلب

٦- ''قيامة الروح'' هو تعبير آبائي قديم ورد في عظات القديس كيرلس الأورشليمي للموعوظين وعند غيره من الآباء ويُسمى القيامة الأولى التي توهَب في المعمودية.

قوة الصليب لكي تُدحرِج عنا الخوف من الدينونة، وتغسل كل شعور بالدنس حتى ننال الفرح بقيامتنا مع الرب.

٢٤- عندما سألني الإخوة أثناء اجتماع عيد العنصرة المقدس[٧] عن سبب ثقتنا بالرب، وهل يجوز لنا أن نتذكر خطايانا؟ وماذا إذا تذكرنا خطايانا وعادت إلينا مشاعر ولذة الخطية؟ وتذكرون أيها الأحباء أنني قلت إن ثقتنا بالرب سببها الأول والأخير هو أنه لا توجد فينا أسبابٌ تدعونا إلى الثقة في ذواتنا؛ لأننا حقًا خطاة مهما تقدَّم بنا السن والخبرة في أمور الرب. وهكذا يصبح تذكُّر خطايانا هو سبب ثقتنا بالرب، لأننا مثل المريض الذي يكشف عن جسده بثقةٍ أمام طبيب كل الأوجاع والجراح ربنا يسوع المسيح.

أمَّا إذا تذكَّرنا مشاعر ولذة الخطية، فإن الالتصاق بالتواضع يجلب السلام للنفس، إذ ما هو غريب أو غير عادي أن نكون غير أنقياء؟ **لأننا حسب قدرتنا لا نملك أن نصل إلى الحياة الجديدة بقوة الإرادة ولا بثوب الرهبنة ولا بأي نسك، بل بالمسيح يسوع ربنا خالق ورب وواهب الحياة الجديدة.**

٢٥- جيدٌ ونافعٌ ألَّا يكون لنا رجاءٌ في أنفسنا، بل في المسيح الذي هو حياتنا. وإذا تسرَّب اليأسُ إلى قلوبنا، فهذا نافعٌ جدًا لأنه يؤكد أن ثقتنا بأنفسنا لا تزال تحرك وتقود حياتنا، وهو ما يجلب لنا كل أوجاع حياتنا السابقة وسلطان الطبيعة القديمة. أما إذا وجدنا أنفسنا في بئر اليأس، فهذا هو وقت طلب معونة الرب لكي يرفع عنا أتعاب هذه الحياة.

٧- يبدو أنه اجتماع للدير.

الضجر:

٢٦- أطلب من الرب يقظةً لنفسي حتى لا يحرِّك «الضجر» خطاياي السابقة، وحتى أُصلبُ حقًّا مع الذي صُلب عنا، لأن الضجر يموت بموت الإرادة التي تطلب حياةً مستقلةً عن الله.

ليمنح ربنا يسوع المسيح جماعتنا الواحدة أن تكون مركَبةَ العرش الإلهي، أي أن نصبح مُتَّحدين مع الشاروبيم والسارافيم في حمل عرش الثالوث القدوس بالتسبيح والشكر، حتى نرث مع القوات السماوية ميراث ربنا الذي صُلب لأجلنا.

اليأسُ علامةٌ من علامات عدم التوبة:

٢٧- إذا كان لنا ثقة في محبة الله الآب التي أعلنها في يسوع المسيح وثبَّتها بموت الصليب وضَمَنَها بقيامته ثم وهبها لنا بالروح القدس (رو ٥: ٥)، فلماذا نيأس؟

ما هو سبب وجود اليأس فينا؟

أولًا: الكبرياء التي تجعلنا نظنُّ أن الحياة الجديدة التي فينا هي منّا، ونحن الذين خلقناها بالصلاة والنسك والسيرة الحسنة. وعندما نسقط، نرى العرش الذي صنعناه وقد انكسرت إحدى قوائمه وتزعزع .. ولأننا نعتقد كَذِبًا أن حياتنا الجديدة منّا .. سقطنا في بئر الكبرياء.

٢٨- قال الأب زكريا الصغير إنه كان يخاف من الماء وكان يخاف الاقتراب من البئر، ولما شجَّعه الأخوة على التعرف على أسباب خوفه، صار من أنشط الإخوة الذين يجلبون الماء من البئر لخدمة المتوحِّدين في البرية .. وسألته كيف عبر هذا العائق، فقال: في اليوم الذي تأكدت فيه

من أنني متُّ مع المسيح لم تعد نفسي عزيزةً عليَّ، بل صارت لا شيء، وعند ذلك فقط فارقني الخوف. هكذا كلُّ مَن كانت نفسه عزيزةً عليه وثمينةً جدًا إلى درجة أن تصبح أكثر من الرب نفسه، تصبحُ آلامُ اليأس وعمق بئر اليأس أعمق وسحيقة جدًا، لأن ارتفاع قيمة الإنسان في نظره تعادل قوة السقوط والانحدار نحو اليأس. وهكذا على قدر الكبرياء يكون اليأس.

وثانيًا: اليأسُ علامةٌ من علامات عدم التوبة؛ لأن الذي تاب يعرف أنه خاطئ، وهذه ليست معرفة جديدة أو طارئة، بل هي معرفة دائمة. فما هو الجديد إذا عرفت أنك خاطئ؟ وما هو الغير العادي إذا أدركت أنك لا شيء .. وإن الصرح الكبير الكاذب المبني على خيالات وأوهام الكبرياء قد سقط وانهار بلمسةٍ واحدة؟

الرجاء في المسيح من علامات التوبة الحقيقية:

٢٩- جاء الربُّ من أجل الخطاة، وإذا كان أيُّ واحدٍ منّا يرى أنه خاطئ، فالخطية هي التي تؤهِّل كلًّا منّا لأنْ يكون من قطيع الرب.

حسنًا أن نبدأ بهذا الإيمان، ولكن ماذا يحدث لو أننا قلنا لأنفسنا: لقد قدَّمنا توبةً نقيَّةً منذ سنوات، والآن عادت خطايا القديمة إلى حياتنا وسقطنا فيها فعلًا؟

أقول لكم الحق إننا تركنا خطايانا يوم نلنا سر المعمودية المقدسة ويوم صرنا من لبُّاس الصليب. ولكن ما هو سر تلك الصلوات اليومية التي تدعونا دائمًا إلى التوبة وطلب الغفران؟ **لماذا تقول كنيستنا المقدسة إن الإنسان لا يمكن أن يخلو من خطية أو دنس ولو كانت حياته يومًا**

واحدًا على الأرض؟[٨] **والجواب هو أن لكل الخطايا سببًا واحدًا وينبوعًا واحدًا، وهو أننا نحيا لهدفٍ آخر غير المسيح، ونعود إليه دون أن نشعر، إذ ننجذب دون إرادتنا نحو حياةٍ مستقلةٍ عن ذاك الذي فينا، والذي بمسرةٍ يسكنُ في قلوبنا، أي الروح القدس ..** وهو؛ لأنه الروح الوديع والشفيع في كل أعداء المحبة، وهذا يعني كل أعداء الله، يتركنا نذهب في طريقنا حتى نكتشف نحن عدم أمانتنا وضعف التصاقنا بالرب، ومتى سقطنا يُسرع الروح القدس بوسائل كثيرة يؤكد لنا فيها أننا لا نزال في شركةٍ معه. ويزرع بذلك بذرة الرجاء فينا لكي نعود إلى شركة الحياة معه.

٣٠- والسبب **الثالث** لليأس، هو أننا نخاف الموت. لقد قلتُ الكثير عن هذا الداء الخفي والمرض القديم[٩]، ذلك الداء الذي يجعلنا نطلب حياةً غير الحياة الحقيقية التي من الله. يحركنا هذا الداء القديم نحو حياتنا القديمة، كأن الذكاء والمعرفة والحكمة التي فينا هي سبب حياتنا. قال الرب بفمه الإلهي: ''ما أصعب دخول المتكلين على أموالهم ملكوت الله''. وهكذا مع الاتكال على الأموال تظهر الكبرياء أُمُّ كلِّ الشرور ومعها الثمرة المرة ''الخوف من الموت''، ومعها كل الآثام الأخرى.

٣١- لنقف في ثبات. وإن سقطنا في بئر اليأس لنطلب قوة الحي القائم من الأموات لكي يعطي لنا ''**رجاء المتواضعين**''.

كان الأب زكريا الصغير يقول: رجاء المتواضع هو أن يحظى فقط بمحبة الله. ولما سُئل عن مواهب وعطايا الروح القدس قال: إنها من

٨- راجع أوشية الراقدين.

٩- راجع رسالة الأب صفرونيوس عن الخوف، أنواعه وعلاجه في الحياة الروحية، عدة طبعات، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة.

أجل الأقوياء مثل أنطونيوس ومقاريوس وغيره، ورفض الحديث عنها لأنه ''صغير''، ولأن الحديث الخاص بالأقوياء لا يخصُّ الصغار والضعفاء. وهكذا عَبَر بحر هذا العالم بسلام وانطلق إلى ملكوت ربنا يسوع المسيح لأنه اقتنى ''رجاء المتواضعين''.

وعندما كان يصارع ويجاهد في ساعات الموت، اقترب منه واحدٌ من الأخوة وسأله ما هو رجاء المتواضعين يا أبَّا؟ فقال: ''**هو المسيح وحده بلا زيادة وبلا نقص**»، وسَكَتَ ونظر إلى فوق وتحركَ كمَن يريد أن يقوم لمقابلة صديق أو حبيب، ثم رقد بسلام.

لنطلب المسيح وحده دون شيء آخر.

التعزية الكاذبة:

٣٢- إذا وجدت نفسك تفرح بلقاء الناس أكثر من الفرح بالرب في الصلاة، فاحترس؛ لأن تعزية الناس لنا تذوب في داخلنا مثل ذوبان الملح في الماء العذب، أمَّا تعزية الله لنا فهي تبقى معنا حتى في أثناء قتال الأفكار النجسة.

وعندما طرح القديس مقاريوس نفسه على أرض القلاية وانتهر أفكاره مؤكِّدًا أنها لن تستطيع أن تحمله خارج الباب، فذلك لأنه وجد راحته في الله، ولأنه أدرك أن الخروج من القلاية هو باب التعزية الكاذبة.

٣٣- لا تعزِّي نفسك بتغيير المكان والناس والملابس وأحوال الحياة؛ لأن الحرب تبدأ في الداخل بخيانة القلب وخوف الإرادة من الداء القديم الخفي، ولكن عزِّي نفسك بكلمة الله وبتذكُّر محبته دائمًا وبالرحمة التي أظهرها من نحوك وبالإحسان الذي صنعه معك.

٣٤- لا تفرح بكثرة الاجتماعات ومخالطة الناس لئلا تقودك هذه إلى

الظن بأنك صرتَ معلِّمًا وماهرًا في طرق الله، فتجد نفسك وقد انحدَرَت دون أن تدري في الكبرياء، وتسقط في خطايا المبتدئين دون أن تعرف، وبعد أن تجد نفسك في حفرة الموت، عند ذلك تذكَّر قول الرسول البار: ''بعد ما كرزت للآخرين صرتُ أنا نفسي مرفوضًا'' (راجع ١كور ٩: ٢٧).

تحوُّل الجسد بنعمة الروح القدس إلى هيكلٍ مقدس:

٣٥- قال الأب زكريا الصغير عند نياحته: لقد جاهدتُ لكي يكون ''**جسدي في عقلي للتوبة، وعقلي في جسدي للاتحاد بالمسيح ربنا**»، وصَمَتَ بعد ذلك. ولما سأله الأخوة أن يشرح لهم هذه العبارة القصيرة الصعبة، أشار إليهم بأن يسكتوا، وأن يُصلُّوا لأجله لأن عقله ليس في الجسد، كما أن الجسد ليس في العقل، بل كلاهما واحد في المسيح.

٣٦- **نحن نسلِّمُ أجسادَنا للربِّ لكي تصبح القربان المقدَّم على المذبح السماوي، أي الإرادة العاقلة التي تقبل الصليب، أي الموت مع المسيح**. ودخول موت الرب في طبعنا الإنساني نراه واضحًا في حالات ''القرف'' الشديد عندما نرى الشر. هذا سلوكٌ غريبٌ على الطبع البشري الذي لم ينَل الاستنارة من روح المسيح. ونلاحظ موت الرب في أجسادنا عندما تشتعل فينا الرغبة بأن نموت لأجله ونستهين بالمرض والألم والتعب، لأن نار الروح القدس أشعلت فينا محبته، فاستهان الجسد بالموت وبالتعب.

٣٧- ورفضُ الإرادة الإنسانية للخطية هو رفضٌ نابعٌ من موت الصليب الذي قبلناه في المعمودية. ورفضُ الكذب، والشهادة للحق ولو على حساب كل ما نملك، هو عطيةُ موت الرب وقيامته.

٣٨- يفصلُ موتُ الربِّ على الصليب الحياة القديمة الفاسدة، ويحوِّل الموت والقيامة معًا إلى هبة حياةٍ تموت وتجد في الموت حياةً حسب آدم الجديد ربنا يسوع المسيح نفسه المثال والينبوع للحياة الجديدة.

وبالالتصاق بالرب نكتشفُ الموتَ والحياة، لأننا بدون الشركة في آلام الرب وقوة قيامته نظل معرَّضين لهجوم الداء الخفي الذي فينا والذي يحركنا لطلب الوجود والبقاء بدون شركة مع الله، وهو ما يجعلنا نطلب الاتحاد بالمقتنيات وبالنساء، ونبحث عن المحبة خارج الله. **والرغبة في الزنا لا تُولد من لا شيء، هي جوعٌ للمحبة والاتحاد بآخر والبحث عن كيان غير الكيان الذي أُعطيَ لنا، أي تحقيق صورة غير صورة الله، صورة الإنسان بدون الله، الصورة التي أساسها الاستقلال التام عن الله، وهو مصدر كل الخطايا.**

نحن نطلب الوجود رغم أننا نملك هذا الوجود. ولكننا لا نحس به؛ لأننا نطلب أن يكون لنا وجودٌ خارج كياننا، لأن كياننا يشعر بالموت وبالعدم، ولذلك نسعى ليكون لنا وجودٌ مستقلٌ غير مُهدَّد، وهو ما نفشل فيه دائمًا ونسقط في خطايا كثيرة. وما شهوة الجسد، أي رغبتنا في أن نتَّحد بامرأةٍ إلَّا انعكاسًا لوجودٍ مستقلٍ عن الله يجدُ سعادَتَه خارج كيانه، ولا يؤمن بأن له كيانًا خاصًّا به من الله، بل يجدُ وجودَه فيما يفعل وفيما يحقِّق، وهذا ليس خطأً بالمرة، وإنما يبدأ الخطأُ والخطية عندما تصبح اللذة وغاية الوجود هي غير غاية وجود الإنسان، أي أن يحيا حسب صورة الله.

وعندما قال الأب زكريا الصغير إنه في التوبة يكون جسده في عقله، أي أنه صار عاقلًا وتحت سيطرة العقل، وعندما تصبح كلُّ قوى النفس والجسد عاقلةً معًا تكمل توبة كل خاطئ. والأعضاء (التناسلية) جزء

من الحياة العقلية، لا يجب أن تنفصل عن حياتنا في المسيح. وضرورة خضوعها للعقل يبدأ عندما يرفض العقل بقوة الإدراك وبنور الروح القدس الخضوعَ لشهوةٍ عابرةٍ ورغبةٍ مستقلةٍ عن الله. وهذا يقود إلى أن يكون العقل في الجسد، أي يكتفي بالوجود الجسداني المحدود ولا يبحث عن وجودٍ آخر.

٣٩- لا عفةَ للقلب بدون الروح القدس. وتبدأ البتولية الحقيقية عندما يصبح وجودنا الإنساني حسب روح القداسة في يسوع، أي أن نوجد حسب المسيح في المسيح. فالقضيةُ هي قضية وجودنا حسب الله وبالله، فننال قداسةً حقيقيةً، أو أن نوجد حسب الحياة القديمة وحسب صورة الله التي خلقناها في عقولنا، فتظل النجاسةُ تحاربنا بكل عنف؛ لأنها، أي النجاسةُ، إعلانٌ عن الوجود المستقل الذي تعطيه الخطية لنا.

٤٠- هنا يجب أن نلتصق بالصليب؛ لأن المصلوب أَعلَن على الصليب جذرَ الخطية الأصلي بقوله: ''إلهي إلهي لماذا تركتني؟''. هذه هي صرخة الوجود المستقل الذي يبحث عن الله، وهي صرخة آدم الأول الذي أدرك أن صورتَه عدمٌ بدون الله. ومع أن سفر الخليقة (التكوين) لم يذكر لنا أن هذه كانت صرخةَ آدم الأول، إلَّا أنه أدرك عندما أراد أن يكون ''مثل الله'' بدون الله، أنه وصل إلى حد العدم، صَرَخَ من أعماق يأسه وفقدان رجاء حياته الذي اكتشف أنه رجاءٌ كاذبٌ. ولما صرخ الربُّ على الصليب، أدركنا نحن حقيقة وجودنا المزيَّف، فقد كنّا قبل تجسده وصلبه وقيامته -كما يقول الرسول- بلا إلهٍ في العالم (أف ٢: ١٢).

الوجود كشركة:

٤١- هكذا نتعامل نحن مع أجسادنا كما لو كانت شيئًا آخر غير ذواتنا؛ لأننا نطلب أن ننال اللذة من الجسد ونسقط في هذه الازدواجية، كأن الجسد هو ''وسيلة'' وليس ذاتنا نفسها. وكلما تحوَّل الجسد إلى وسيلة، ازدادت فينا شهوة الزنا؛ لأننا -بالخطية- صار لنا وجودٌ مزدوج. وجودٌ ينقسم فيه الكيان الإنساني إلى وسيلة وغاية.

هذا الانقسام هو نارُ الشهوةِ نفسها التي تجعلنا نبحث عن وجودٍ واتحادٍ خارج ذواتنا، فنسقط في طلبِ لذةٍ من أعضاء الجسد الكائنة فينا، والتي هي جزءٌ من ذواتنا لا يمكن أن ينفصل عنها. ولكن اللذة تجعل أيدينا تعبث بالجسد، تبحث عن شيءٍ نظن أننا نستطيع أن نناله من وسيلةٍ هي جزءٌ من كياننا (أي الأعضاء التناسلية).

هذا الانقسام مصدره سقوط آدم. وقبل السقوط كان وجودُنا الإنساني قد خُلق جسديًّا وروحيًّا ليكون وجودَ شركةٍ، نراه عندما نتكلم ونسمع أنفسنا داخليًّا في العقل، وخارجيًا بواسطة الأُذن، وعندما نأكل، لأننا نقبل ما هو كائنٌ خارج كياننا، أي الطعام ونشترك فيه مع الآخرين.

ونحن نرى وجودَ الشركة في المخيِّلةِ، عندما نتخيَّلُ الآخرينَ ونخلقُ حوارًا مع هؤلاء الذين هم في عقلنا. بل نرى وجودَ الشركة في اللغة الإنسانية نفسها عندما نرى كيف تصبح الكلمات والأفعال هي أداةُ الحوار الذي تقوم فيه اللغة بدورٍ بارزٍ هام. فكلُّ كلمةٍ تُقال هي لنا، وهي من الآخرين. وهي تُقال لكي تؤسِّس العلاقة الإنسانية؛ روحيةً كانت أم جسدية. نحن نعطي أسماء لكلِّ عضوٍ في أجسادنا لكي نتمكن من الحوار ومن الشركة، وما الأسماءُ إلَّا أداةُ شركةٍ لأنها أصلًا أداةُ حوارٍ.

الوجود المزيَّف المغلق:

٤٢- وبعد السقوط تحوَّلت كلُّ أدوات الشركة: اللغة وأعضاء الجسد إلى أدواتٍ تخدم الوجود الثنائي أو الوجود المزدوج الذي يجلب علينا أوجاع الخطية.

هذا الوجود المزيَّف الذي يتحول فيه الجسد إلى أداةٍ، هو بداية طريق الانحدار نحو الجحيم؛ لأن الجحيم الحقيقي هو الوجود الإنساني المزيَّف الذي بسبب الفراغ الداخلي، يبحث فيه الإنسانُ عن شيءٍ خارجيٍّ يُعطي معنىً وقيمةً لوجوده ولا يجده. وهكذا ينطبق عليه قول الرب: ''كلُّ مَن يشرب مِن هذا الماء يعطش''، وهي حالة البحث الدائم عن شيءٍ يملأُ الفراغَ الناشئ عن الهرب من الحياة الداخلية، أي من القلب، والبحث عن شيءٍ خارجيٍّ يملأُ هذا الفراغ.

الامتلاء بالروح القدس:

٤٣- لنطلب الروح الناري الذي أوصانا العظيم أنطونيوس أن نطلبه، وأن نسأل الله ليلًا ونهارًا لكي ننال هذا الماء الحي ''الذي كلُّ مَن يشرب منه لا يعطش، بل يتحول فيه إلى ينبوع ماء حي يفيض إلى حياةٍ أبدية''. وعندما نمتلئ بالروح، فإن ثلاثةَ أمورٍ هامة تحدث لنا:

أولا: لا نعود نبحث عن الله خارج هيكل الله، أي القلب، بل نجده بفرحٍ شديدٍ داخلنا.

ثانيًا: تقلُّ وتنعدمُ تدريجيًّا رغبتُنا في طلبِ تعزيةٍ خارجيةٍ أو فرحٍ بعيدًا عن الله. وعلامةُ هذا أيضًا هو الفرح بالصلاة الدائمة، أو على قَدرِ تقدُّمِنا نجدُ فرحًا في كلِّ فُرصِ الصلاة.

ثالثًا: يزداد فينا الاعتقادُ الراسخُ بأن الفانيات لا مكانَ لها في حياتنا.

لنراقب قلوبنا لكي ندرك أن زيارات الفرح الإلهي هي عربونٌ حقيقيٌّ للحياة الآتية.

الامتلاء بالروح وتجلّي الجسد:

٤٤- يقول رسول ربنا يسوع المسيح: ''اطرحوا عنكم الكذب وتكلَّموا بالصدق كلُّ واحد مع قريبه'' (أف ٤: ٢٥). ولكن قبل ذلك كان الرسول يؤكِّد حقيقة الوجود للمؤمنين بالمسيح: ''اخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان الأول أي العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور'' (أف ٤: ٢٢ - ٢٥). وفساد الإنسان الأول هو فساد المتألِّه بالمعرفة وحدها، ولذلك يَفسَد حسب شهوات الغرور، أي شهوات الأُلوهة الكاذبة التي طلبها الإنسان الأول.

وأفضل مجال نرى فيه هذه الأُلوهة الكاذبة هي خطية الكذب بكل أنواعه، حيث يقول الإنسان ما لا عِلم له به، ويردد ما سمعه من آخرين دون أن يكون واثقًا منه، ويخلق الأوهام التي تنفُخ صورته الكاذبة وتعظِّم صورته الذاتية، فتكبُر بشكلٍ يفوق الحقيقة، فتصدر أحكامٌ خاطئة وتصوراتٌ فاسدة من عقلٍ فَقَدَ علاقته بالواقع.

ولنفس السبب يقول الرسول يعقوب: ''جُعل في أعضائنا اللسانُ الذي يدِّنس الجسم كله، ويُضرِم دائرة الكون كله، ويُضرَمُ (أي يشتعل بنار) من جهنم'' (يع ٣: ٦). وهكذا يدنِّس الكذبُ الجسدَ، ويمنعُ الكذبُ عِفَّةَ الجسد وعِفَّةَ النفس؛ لأنه يخلق كل أنواع الأوهام، ويجعل قداسة الجسد مستحيلةً. وكلام الرسول ليس عن اللسان اللحمي، وإنما اللسانُ هو العضو الذي يُعلِن ويعبِّر عما في داخل الحياة العقلية كلها.

ونحن نجد في الكلام والفكر نوعًا غريبًا من الوجود. فالكلام الذي به

نخاطب الله، وهو أحد أعمدة الشركة، يتحول إلى تأكيدٍ للخطية والذاتية (الأنانية). وما التطرف في التعبير عن الذات إلَّا منحى من مناحي الأُلوهة الكاذبة، حيث يصبح الفرد هو مُستَقَر وقاضي الشريعة، وهو نفسه لوحي العهد ومُعلِن الوصايا، أي مقياس الخير والشر.

مَن يقع في هذا الفخ، لن يتجلَّى جسده، ولن تتجلَّى روحه، بل يقع في بئر ونار الهاوية حيث الانقسام والانحدار نحو نفس الحياة الشيطانية التي تدور حول نفسها في دائرةٍ مغلقة[١٠].

٤٥- لنطلب الروح الناري، فهو طهارة النَّجِسِين وقداسة كلِّ الذين يطلبون الحياة الجديدة من الله، تلك التي قال عنها رسول المسيح: ''البسوا الإنسان الجديد''، أي يسوع المسيح، فهو ''المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق'' (أف ٤: ٢٤). وبقوله: ''المخلوق بحسب الله''، كان يقصد آدم الجديد الذي رغم أنه مساوٍ لنا حسب التدبير كإنسان، إلَّا أن نفس الرسول يقول أيضًا عنه: ''الإنسان الثاني الربُّ من السماء'' (١كور ١٥: ٤٧)، مؤكِّدًا إن الإنسانية الجديدة خُلقت في يسوع المسيح، حيث خَلَقَ الإنسان الواحد الجديد عندما صَلَبَ الفرائضَ اليهودية والفلسفة اليونانية ''مبطلًا في جسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في ذاته إنسانًا جديدًا صانعًا سلامًا» (أف ٢: ١٥). فالإنسان الجديد ليس فيه بِرُّ الناموس، ولا هو ثمرةٌ له رغم أن الرب لم يكسر الناموس، فهو بلا خطية، ولا هو ثمرة غرور الفلسفة والتألُّه بالمعرفة (كول ٢: ٨).

٤٦- وقد خُلق الإنسان الجديد بالصليب. فقد جاء الصليبُ بالحكم

١٠- من التعبيرات الشائعة في المؤلفات النسكية، تعريف كلمة شيطان بأنه دائم الدوران حول نفسه لا يستقر على حالٍ معيَّنٍ، ولذلك لا ينمو ولا يتطور (راجع أيوب ١: ٧).

على عدم جدوى الناموس في خلاص الإنسان من الموت؛ لأن الناموس هو نفسه الذي حَكَمَ بموتِ الخطاة جميعًا، ولذلك خَلَقَ الصليبُ الفكرَ الجديد، أو الذهنَ الجديد الذي:

- لا يخاف الموت.
- ويقبل الموت في المسيح ومعه لكي يحيا به.
- ويحب الوصية المقدسة لأنها حياة، ولأن وصايا الربِّ صارت جديدةً بقوة الروح القدس.

لنطلب الروح الناري لكي نلتصق بالصليب ونحيا به شريعة حياة المسيح يسوع نفسه الذي هدم قوة الموت بالصليب وأقام الحياة من القبر.

٤٧- أمَّا عن تجلي الجسد، فقد سبق وذكرت من قبل إن تأمُّل الخليقة، أي الهذيذ الأول ودرجة المعرفة الأولى (الثاؤريا الأولى)[١١]، تغرسُ في القلبِ الإيقان بقوة الله وقدرته، وتعطي لنا بذرة الشعور بحضور الله في الخليقة وإنه هو ضابط الكل.

ودرجة المعرفة الأولى تنزع عنّا الشعور بنجاسة الجسد، وتؤكِّد لنا أن مصدر الشر في حياتنا هو الفكر وليس أعضاء الجسد. وقد أكَّد الرسول بولس هذه الحقيقة معلِنًا لنا إن إماتة الأعضاء يبدأ بمعانقة الصليب لأنه قال: ''أميتوا أعضائكم التي على الأرض الزنا النجاسة الهوى الشهوة الردية الطمع الذي هو عبادة الأوثان'' (كو ٣: ٥ - ٦). هذه الأمور ليس لها عضوٌ معيَّنٌ في الجسد، بل تبدأ الإماتةُ بالفكر. ولا حظوا -أيها الأحباء- قول الرسول: ''الطمع الذي هو عبادة الأوثان''، لأن عبادة الأوثان هي رغبةٌ كامنةٌ في القلب تجعل الإنسان يحاول السيطرة على الله، وعندما يَعجَز، يخلقُ آلهةً كاذبةً على مثال صورته الشريرة الكاذبة

١١- راجع كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية للأب متى المسكين.

الخالية من الحق. وهكذا يتحول الجسد إلى آلةٍ تطيع الفكر الشرير وتجعل الخاطئ لا يعرف الحق، بل يصدِّق الكذب.

٤٨- أتوسَّلُ إليكم في محبة المسيح أن تجعلوا الصليبَ مغروسًا في درجة المعرفة الأولى، أي تأمُّل الكائنات والمخلوقات التي تخضع لتدبير الله، لأننا بالصليب نرى كيف تجود كلُّ الكائنات بحياتها، بل بوجودها مثل الزروع والحيوانات لكي تعطي حياةً للآخرين.

٤٩- وبالصليب ندركُ أن هبة الحياة التي يقدِّمُها كلُّ كائنٍ للآخر هي تدبير الله الذي يجعل حياة كلِّ كائنٍ تعتمد على غيرها من الكائنات، ويدركُ أن الموت يؤدِّي إلى حياةٍ أخرى؛ لأن الزروع والحيوانات تجود بحياتها لكي نحيا نحن. هذه شريعةُ الصليبِ المغروسة في تدبير الخليقة، وهي التي تُعطي لنا الرجاء في الحياة الجديدة التي تُولَد بالصليب.

٥٠- يتجلَّى الجسدُ أولًا بمحبة الجسد الصحيحة في المسيح؛ لأن احتقار الجسد هو نسكٌ كاذبٌ، بل لنحب أجسادنا محبة المسيح لجسده، لأنه قدَّمه قربانًا للآب. هكذا فلنحب أجسادنا كقربانٍ يقدَّم للآب في يسوع المسيح بالروح القدس.

ويتجلَّى الجسدُ ثانيًا بالتواضع الحقيقي؛ لأن المتواضع حقًّا هو الله، ولولا تواضعه لَمَا نزل من السماء وتجسَّد.

ونحن نرى تواضع الله الحق في احتجابه عن الخليقة، ليس ترفُّعًا وكبرياءً بل تواضعَ مَن أعطى الوجود والحياة وترك كلَّ الكائنات تحيا حسب شريعة وجودها، دون أن يفرض عليها وجوده وقدرته، بل جعلها تلتمسُ وجهَّه بحريةٍ ورضىً، فهو لا يعلِن عن نفسه لكي يقهر ويسود، بل يختفي لكي تطلبه الخليقة وتحبه وترجوه.

هذا التواضع الحقيقي، نراه في خدمة ربنا يسوع المسيح الذي كان يطلب ويفتقد، وكان يختفي أيضًا لكي تطلبه الجموع، ليس من أجل طعام ومعجزات شفاء وقوات، بل من أجل هبة الحياة.

الاتحاد بالمسيح يجعلُ الجسدَ عاقلًا:

٥١- بالصليب تعود حواس الروح لحواس الجسد بسبب الوجود الحقيقي غير الكاذب وغير المنتفخ، وتصبح حواس الروح هي حواس الجسد، عند ذلك نصبح واحدًا وتنتهي ثنائية الجسد والروح. وقبل ذلك نجد هذه الوحدة في المسيح يسوع، نراها برجاء الإيمان، حتى وإن كانت ليست فينا، ونصلي لكي تصبح هذه الوحدة لنا.

٥٢- وأعداء تعقيل الجسد واعتباره ثوب الروح الذي به تظهر أمام الله والناس هم: الخوف – الخجل – الشهوة.

أمَّا الخوف، فهو يُقسِّم حتى اللسان الذي نتكلم به إلى لسانين، ولذلك يصف رسول المسيح الإنسان المنقسم بأنه "ذو قلبين" (راجع يعقوب ٤: ٨). وعندما يسود الداء القديم الخفي، أي الخوف من الموت على القلب، أي الحس، وعلى الفكر، أي الفهم، فإن الانقسام الذي يسبِّبُه الخوفُ من الموت هو الذي يجعل الإنسان عائشًا بفكرين وقلبين، يُظهِر ما لا يعرف، ويُعلِن ما هو غير حقيقي، ويحيا حياةً منقسِمَةً لكي يجد مكانه بين الناس، وينسى حقيقة أسره للخوف.

وقد سبق وأشرت إلى أنواع الخوف في رسالة سابقة كتبت لمنفعة الأخوة المبتدئين[١٢].

١٢- راجع رسالة الأب صفرونيوس عن الخوف، أنواعه وعلاجه في الحياة الروحية، عدة طبعات، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٥٣- أمَّا الخجلُ فهو نوعان، نوعٌ تناله الروح من الروح القدس نفسه، وهو ثمرة المحبة الإلهية التي يسكُبُها الروح القدس فينا، ولذلك هو خجلُ مَن يعرف حقيقة ذاته، أي المتواضع بالحق. أمَّا خجلُ الكبرياء فهو دائمًا يتحول إلى دفاعٍ عنيفٍ عن الكرامة. وإحدى علاماته التي لا يمكن أن نخطئ فيها بالمرة هي محاولة ستر الخجل والتغلُّب عليه بالتظاهر أو بالادعاء أو بالكذب أو بالثلاثة معًا. هذا الخجل هو بقايا ثوب ورق الشجر الذي وضعه آدم وحواء حول عورة جسديهما.

ولكن علينا أن نلبس ثوبَ الجلد، أي أن نكون في براءة الحيوان الذي لا يعرف الخجل، لأنه لم يمرض بالكبرياء، ولا يحب الظهور، ولا يخافُ من الشتائم، ولا يفهم معنى الكرامة، ولذلك قيل: "لا تلعن الحيوان لأنه لا يفهم ولأنك باللعنة تدين نفسك".

٥٤- لنسلكَ بلياقةٍ ومحبة، ولنعمل أعمالَ الله لكي لا يؤدِّي بنا الخجل إلى التستر، وإلى الانشطار بين هدفٍ خفيٍّ نخجل منه، وهدفٍ معلَنٍ نختفي خلفه؛ لأن هذا السلوك يحوِّل الجسد بشكلٍ خاص إلى أداةٍ للنفاق، وهي تجعل الجسد يفقد براءته.

٥٥- ومتى فَقَدَ الجسدُ براءته وتحوَّل إلى أداةٍ، تعذَّر علينا أن نسترد قداسة الجسد، وأن نحوِّله إلى قوةٍ عاقلةٍ هي جزءٌ من القوة العاقلة الروحانية.

٥٦- وعندما نُظهِرُ غيرَ ما نُبطن، فإننا نقع في خطايا كثيرة ويصبح النفاق انقسامًا حقيقيًّا لقوى النفس والجسد، ولذلك قيل إن المنافق لا يجد جسده، وهو غريب عن روحه أيضًا.

٥٧- أمَّا الشهوةُ فلا حاجةَ لي ولكم بأيِّ حديثٍ مطوَّلٍ عنها؛ لأن الشهوةَ تخدع وتأسر وتقتل. ومَن يُستعبَد للشهوة هو الذي قال عنه

الرسول يعقوب: ”من أخطأ في واحدة فقد أخطأ في الكل“ (يعقوب ٢: ١٠) لأنه صار عبدًا لشهوةٍ واحدة، وهي التي تفتح له باب التعدي على كل الوصايا حتى وإن لم يكسرها.

ونحن نغلب الشهوة، بل كل الشهوات بتذكُّر حقيقة حالتنا، وأننا -بدون المسيح- نحن قذارة ووَسَخُ العالم كله، ولذلك لا طَمَعَ لنا في أيِّ شيءٍ سوى أن يكون لنا صليبُ ربنا يسوع المسيح الذي به صَلب العالم بكل شهواته، لأن الصليب خَتَمَ على قانون وأسلوب الحياة الذي يقدِّمه العالم بأنه أسلوبُ الموت نفسه.

أما نحن، وقد صُلبنا مع المسيح وصار الصليب هو شريعة حياتنا، فقد صُلبنا للعالم ولا يمكن للعالم أن يتعامل مع المصلوبين لأنهم في نظر العالم أموات لا يستحقون الاهتمام.

٥٨- لنقطع هذا الحبل المثلث، أي حبل الخوف والخجل والشهوة بقوة صليب ربنا يسوع المسيح؛ لأن قبول الموت مع يسوع المصلوب لأجلنا هو الذي يقطع أوصال الخوف من الموت، ويعطي لنا حياةً لا تعرف الخجل، ولا هي مستعبدة للشهوة. وحسنًا قيل عن الأنبا أغاثون إنه لما شُتِم وقيل له إنه مهذارٌ وكاذبٌ، بل وزانٍ، لم يرتعب ولم يتأثر، لأنه حقًا كان قد صُلب مع المسيح واستراح من قتال الخوف وداس على الخجل؛ لأننا ندرك -في المسيح- أننا خطاة، فأيُّ شيءٍ جديدٍ أو حقير يمكن أن يُقال عنّا إذا كُنّا ندرك أننا خطاة.

٥٩- وإذا غَلبنَا الخوفَ والخجلَ بالتواضع وبفكر المصلوب، تظل حرب الشهوات تطاردنا في كل مكان وفي كل ما نقوم به، ولكن تضعُف القتالات عندما يتوحَّد الجسد بالروح وتصبح الروح هي ثوب الجسد، والجسد هو ثوب الروح.

هذا الطريق طويلٌ، ولكن بالرجاء نخلُص وبالإيمان نسير فيه[١٣].

١٣- لا توجد خاتمة لهذه الرسالة.